المحاضرة الثالثة

امثلة نقدية من العصر الجاهلي

م.م سجى عبدالرضا هاشم

الأمثلة النقدية في العصر الجاهلي

زعم البعض من نقاد ومؤرخي الأدب العربي أن العصور العربية الأولى تخلو من النقد، وقدموا أدلة كثيرة على قولهم هذا، وإن انصف بعضهم فقصدوا النقد المنهجي بقوانينه التحليلية الموضوعية، وقواعده العلمية.

وقد انقسم مؤرخو الأدب إلى فريقين:

الأول: فريق يرى أن النقد العربي بدأ في عصر ما قبل الإسلام.

الثاني: فريق آخر يرى ان النقد المنهجي، على نحو خاص، بدأ في القرن الثاني للهجرة[٣] .

هذا الانقسام يعود في الأساس إلى رؤيتهم للعملية النقدية، ففي الوقت الذي يرى فيه الفريق الأول أن الإنسان ناقد بطبعه، ومتذوق بفطرته، يطالب دائما بالأحسن والأجمل والأجود والأمثل في شؤون حياته كلّها، ولن يشذّ الشعر والأدب عن هذا المبدأ، ذلك أن قراءة الشعر وسماعه تقتضي تذوقّه ونقده ولا سيما إذا حدث ذلك من عارف بالشعر كالشاعر نفسه أو راويته، وما أكثرهم في عصر الجاهلية.

ويرى الفريق الثاني أن مثل هذه الأحكام ليست من النقد في شيء، وأن النقد الصحيح هو الذي يستند إلى قواعد وأصول ومنهج، وهذا الأمر لم يحصل إلّا في القرن الثاني للهجرة.

وعلى الرغم من الاعتقاد بأن النقد الأدبي قبل الإسلام كان يرتكز أساسا على الذوق الفطري، ويخلو في أغلب الأحيان من التعليل والتفسير، إلّا أنه يمكن القول أن من يطالب بالنقد المنهجي العلمي بقوانينه ومناهجه المعروفة أن تتواجد في العصر الجاهلي فإنه بذلك يحاول تسليط مصطلحات حديثة على تراث فكري قديم , الأمر الذي يؤدي إلى محاكمة فترة زمنية قديمة تاريخيا بأعراف معاصرة، وليس هذا من البحث العلمي المنهجي ولا من الدراسة الموضوعية الجادة في شيء ؛ لذا يتطلب الأمر في مثل هذه الدراسات أن نبحث في خصائص ومميزات النقد الأدبي في عصر الجاهلية في إطاره الزمني والمكاني، وهو ما نحاول البحث عنه في هذه الدراسة من خلال البحث في مستويات النقد في العصر الجاهلي ومن ثم الوصول إلى خصائصه، وسماته، ومميزاته.

النقد الذاتي

يتحدث الجاحظ عما أسماه بـ(عبيد الشعر) فيقول: ((ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا، وزمنا طويلا، يردد فيها نظره، ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله، وتتبعا على نفسه، فيجعل عقله، زماما على رأيه، ورأيه عيارا على شعره، إشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوّله الله تعالى من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليّات،

والمقلّدات، والمنقّحات، والمحكمات؛ ليصير قائلها فحلا خنذيداً، وشاعرا مفلقا))[٦] هذه العملية التي عرفت عند القدماء بـ(التنقيح) وما هي إلّا عملية نقدية، إذ يعيد الشاعر النظر فيما يكتب مرات ومرات حتى يستقر على الشكل النهائي الذي يريد لنصه أن يكون عليه.

وفي أدبنا العربي القديم كانت عملية التنقيح تساير عمل القصيدة، فقد ذكرت كتب الأدب نصا شعرياً يتحدث عن عملية التخيّر والعزل التي يقوم بها الشاعر ليخرج القصيدة بصورة متميزة فيقول :

أذود القوافي عنّي ذيادا ذياد غلام جرئ جـــراد

فلما كثرن وعنينـــــه تخيّر منهن شتّـــى جياد

فالشاعر يردد النظر في عمله لينقح ذلك أنه حين يكون مستغرق الفكر في العمل قد لا يكون منتبها لبعض الهنات التي ترافق نصه الشعري فيعمد إلى مراجعة ما كتبه أكثر من مرة ليحذف ما ينبغي حذفه ويصلح ما يتعين إصلاحه ويكشف عما يشكل عليه من غريبه وإعرابه ويحرر ما لم يتحرر من معانيه وألفاظه؛ ليصل إلى غايته المنشودة في إخراج نص شعري للمتلقين يقترب من الكمال الفني.

كان النقد في العصر الجاهلي يتجه غالباً إلى الشعر والشعراء بعيداً عن النثر، على أن النقاد هم الشعراء ذاتهم يبدعون وينقحون لحول كامل، في حين أنّ النقد في العصر الجاهلي كان يعتمد على الموازنة بين الشعراء فيما يتفق من التزامن لشاعرين في عصر واحد أو تشابه الأغراض الشعرية أو المذهب الشعرية أو تميز بين الشاعرين وإن اختلفوا في المعنى أو الغرض أو الفن الشعري.

ولعلّ اقدم ما وصل إلينا من تلك الموازنات الشعرية موازنة (ام جندب) بين بيت زوجها (امرؤ القيس) وبين (علقمة بن العبد) فقد روي أن زوجها وعلقمة قد تحاكما إلى ام جندب في أيهما اشعر فقال امرؤ القيس:

فللسوط الهوب وللساق درة وللزجر منه وقع اهوج متعب

وقال علقمة:

فادركهن ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فكان حكم ام جندب لعلقمة العبد، الأمر الي جعل زوجها يمتعض كونها فضلت شعره على شعر زوجها، فكان ردها: انك زجرت وحركت ساقيك وضربت بسوطك وهذا غير مقبول في الادب.

في حين قال الاعشى مادحاً قيس بن معد يكرب الكندي:

ونُبئت قيساً ولم أبله كما زعموا خير أهل اليمن

فجئتك مرتاد ما خبروا ولولا الذي خبروا لم ترنِ

من الملامح النقدية لهذين البيتين نجد أنّ المعنى في هذين البيتين لا يناسبان ولا يلائمان مدح قيس فمعنى ذلك أنّ الاعشى لم يتيقن من أن قيس خير أهل اليمن إنما نبؤه بذلك ولم يتيقن وبذلك فإن الاعشى قد أخطأ؛ لأنّه استعمل ألفاظاً وتراكيب لا تلائم مقام الملك.

ولعلّ أهم مظاهر النقد في العصر الإسلامي هو ظاهرة الاقواء وهي: اختلاف حركة الروي في القصيدة، ومثال على ذلك ما جاء به النابغة الذبياني:

أمن آل مية رائـــــح مغتدِ عجلان ذا زاد وغيرَ مزودِ

زعم البوارح ان رحلتـنا غداً وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ

فيلاحظ ان حركة الروي في البيت الأول الكسر، وفي البيت الثاني هي الضم وهذا يسمى الاقواء.

النقد في الادب الإسلامي

يشمل عصر صدر الاسلام عصر الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والخلفاء الراشدين، وقد اتفق كثير من الدارسين على ذلك، أي تحديد عصر صدر الاسلام بدءا بالبعثة النبوية حتى عام ٤١ هجرية، أي ان هذا العصر يشغل نصف قرن من الزمان تقريبا على الرغم من أن بعض مؤرخي الأدب يعدون الفترة الممتدة من مبعث النبي الى سقوط دولة بني أمية (١٣٢ هـ) عصرا أدبيا واحدا يطلق عليه بعضهم عصر صدر الاسلام، ويسميه الآخرون العصر الاسلامي إذن مصطلح صدر الاسلام يشمل الفترة الممتدة من البعثة النبوية الى بداية خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ ، ويشمل عصر الرسول والخلفاء الأربعة.

اتسعت آفاق النقد في العصر الإسلامي باتساع الحياة الثقافية، وكان اتجاهه نحو وضع مقاييس نقدية متأثراً في ذلك بالحياة الإسلامية، وقد تحدد في هذا العصر اتجاهان جديدان للنقد الادبي لهما مكانة مهمة في مقاييس النقد الادبي في العصر الإسلامي، وهما:

١-الاتجاه الديني والخلقي: يسير على مناهج السلوك الإسلامي ويهدف هذا الاتجاه إلى أن يكون الفن لخدمة المجتمع الجديد، وان يساهم في بنائه وهدفه ان يكون الشعر داعماً للأخلاق والمبادئ الإسلامية.

٢-الاتجاه الفني: ينصرف إلى ان يكون الادب سهلاً واضحاً.

موقف الرسول والصحابة من الشعر والشعراء

ان نظرة الاسلام الى الشعر كما تمثلها آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول، وسلوك الخلفاء إزاء الشعراء، جعلت الباحثين المعاصرين يختلفون في فهمها،

ويستنتجون منها آراء ونظريات متعددة، بعضها يذهب الى أن القرآن وقف موقفا ايجابيا من الشعر والشعراء وهذا هو مذهب فريق من الدارسين والباحثين:

١- فريق يرى أن الاسلام شجع الشعر ووجهه لما فيه صالح الاسلام، وان الاسلام لم يقف ضد الشعراء بل أخذ في أيديهم، وان الشعر ومنذ بزوغ الاسلام كان عونا وسندا للإسلام، جسد أحداثه الكبرى ووثق حروبه، ووقف ضد أعدائه، وقد مارس الشعر دوره الفعال في التعبئة الوجدانية، ويخوض معركته حين كان الالتحام بين المسلمين والمشركين في المعارك الاولى وبعد ذلك في أثناء الفتوحات.

٢-الفريق الاخر ذهب الى ان الاسلام حارب الشعر ووقف ضد الشعراء، وجاء ذمهم في آيات القرآن الكريم تأكيدا لذلك، كما أن الرسول أهدر دماء بعض الشعراء، وأقام عليهم الحد، وكان لهذا الهجوم نتائج سيئة جعلت الناس ينفرون من الشعر ويهجرونه، ولهذا ضعف الشعر في هذه المرحلة.

وهكذا كان الاسلام يتخذ من الشعر مواقف تتلاءم وطبيعة كل مرحلة من مراحل الدعوة وظروفها، فهو يوجه الشعر ويشجعه حين أتيح للمسلمين أن يتخذوا الشعر سلاحا من أسلحة الصراع بين الدعوة وأعدائها في عهد النبوة، ثم يزور ويتخلى عن هذا الشعر نفسه بعد فتح مكة حين رأى فيه خطرا على وحدة المسلمين، ولعلّ الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- ومن تبعه من الخلفاء الراشدين كان لها دور في العملية النقدية في هذا العصر ويتمثل في:

١-موقف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الشعر والشعراء:

لم يكن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) شاعرا على الرغم من أنه أفصح العرب، وما ينبغي له أن يقول الشعر كما سبق وذكرنا تنزيه الله له عن ذلك، والمتواتر عنه عليه الصلاة السلام أن له مواقف من الشعر، فلقد انكر بعضه واستنكره، ونهى عن رواية بعضه واهدر دم بعض الشعراء، ومن جانب آخر أثنى على بعض الشعر، واحب سماع بعضه، وأثاب بعض الشعراء وشجعهم، ودعا لهم دعوات حسنة.

وللرسول جملة من الأحاديث تمثل هذه المواقف المختلفة والناظر فيها بلا تعمق، والاخذ بظاهرها أحد ثلاثة:

١-أن يأخذ بالأحاديث التي تمثل استنكاره للشعر فيتهم الرسول بمعاداة الشعر.

٢-أن يأخذ بالأحاديث التي تمثل جانب استحسانه وتشجيعه للشعراء فيأخذها سندا وحجة على رأيه بوقوف الاسلام الى جانب الشعر دون تحفظ.

٣-أن يجمع بين هذين الاتجاهين ويوفق بين آراء الرسول وأقواله جميعا، ويحكم العقل ليقف على دواعي الاستنكار، وبواعث الاستحسان، والقول الفصل في فهم موقفه (صلى الله عليه وسلم) من الشعر هذه الأحاديث والأقوال التي تعتبر مفتاح فهم المواقف:

١-(إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق الحق فهو منه، وما لم يوافقه فلا خير فيه).

٢-(إنما الشعر كلام ومن الكلام خبيث وطيب).

٣-(لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحا ودماً، خير له من أن يمتلئ شعرا هُجيت به.

وقصته مع كعب بن زهير مشهورة فقد أهدر دمه لأنه قال شعرا يذم فيه الرسول وأصحابه، ويسفه الاسلام، فلما أتاه تائبا عفا عنه، وقال في عنترة: (ما وصف لي أعرابي فأحببت أن أراه إلا عنترة) وحين سمع قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

قال: (أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد ....) ولما سمع بيت طرفة:

ستبدي لك الأيام ماكنت جاهلا ويأتيك بالأخبار مالم تزود

قال: (هذا من كلام النبوة).

ومن خلال استعراض هذه الأقوال يمكن استخلاص النتائج التالية:

١-إن موقف الرسول مستمد من مبادئ القرآن عامة، ومن الآيات التي سبق ذكرها على وجه الخصوص.

٢-إن موقف الرسول يتراوح بين الشدة واللين، فهو تارة موقف متشدد تجاه الشعر والشعراء، ينفر منه، وينهى عنه، وتارة موقف ايجابي باعتبار الشعر وسيلة تهذيب ودعوة للفضائل.

٣-ان موقف الرسول هذا جاء منسجما مع قواعد الدين، متوافقا مع منطوق ومدلول آيات القرآن، وهو مفهوم واضح يصدر عن مبادئ ثابته، ويدافع عن غايات سامية.

٤-ان هذا الموقف لا يختص بشعر كفار قريش الذي عارض الرسول، ورفض التصديق بالدعوة، ولكنه موقف عام من الشعر؛ لأن الرسول قبل من الشعر الجاهلي ما وافق روح الاسلام، وانسجم مع قيم ومبادئ القرآن، ومن الشعر

الاسلامي ما تمثلت فيه حقيقة الدين والتزم بخط الدعوة الجديدة، ومن مؤيدات هذا الاستنتاج ان الوحي نفسه لم يحرم الشعر، ولم يمنع روايته وانشاده.

٥-ان مفهوم الشعر من وجهة نظر الرسول هو كلام مؤلف أي مصنوع ومنظم، وهو كلام جزل من كلام العرب وقبوله أو رفضه يتوقف على مقدار ما فيه من قيم الفضيلة والحق، وعلى ما يدعو اليه من شيم الإخاء والمساواة والعدل، فالمعيار عنده واضح، وهو مدى مطابقة الشعر لمبادئ القرآن، وقيم الاسلام، ومدى التزامه بمقتضيات الدعوة الجديدة، ومساهمته في معركة الوجود ضد الكفر والشرك.

٢-موقف الخلفاء الراشدين من الشعر والشعراء

لم يكن موقف الخلفاء وبقية الصحابة من الشعر ليختلف عن موقف القرآن، والرسول فهما المصدر الاول الذي استمد منه الخلفاء (رضوان الله عليهم) حقيقة موقفهم من الشعر، فكلهم كانوا يحبون سماع الشعر، ويحفظونه ويتذوقونه، ويروونه، ومنهم من عرف بنظم الشعر والتمثل به ونقده.

أبو بكر الصديق (رضي الله عنه): كانت صلته بالشعر كبيرة حفظا وتمثلا ونظما، فقد دلت الروايات على أن أبا بكر كان يكثر من حفظ الشعر، كثير التمثيل بأشعار الجاهلية، يروي منها في مواقفه وخطبه، حتى قالوا عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا وأنشد فيه بيت شعر، وكان النبي يقول أول البيت فيكمله أبو بكر، أما عن نظمه للشعر فقد ورد عن بعض الرواة قصائد ومقطوعات له إلا أن رواة السير كأبن هشام لا يثبتون ذلك عنه ، ولكن من المؤكد أنه قال الشعر في الجاهلية، ولكنه توقف عن ذلك في الاسلام ليس لشيء وإنما ليتفرغ الى أمر عظيم وخطير ألا وهو الاسلام، وكان الصديق ناقدا للشعر فقد وردت عنه بعض الملاحظات النقدية التي تنسجم مع

مـا كـان عليـه مـن فصـاحة ودرايـة بالشـعر وأفانينـه، وكانـت آراؤه النقديـة تتميـز بالاجمـال والعموم مثله مثل النفاد الآخرين في عصره .

عمـر بـن الخطـاب (رضـي الله عنـه): لـه العديـد مـن الآراء النقديـة الشـعر والشـعراء، كمـا عـرف قيمـة الشـعر وأهميتـه، فقد روى الجـاحظ فـي بيانـه : (كتـب عمـر بـن الخطـاب الـى سـاكني الأمصـار: أمـا بعـد فعلمـوا أولادكـم العـوم والفروسـية، ورووهـم مـا سـار مـن المثـل، وحسـن مـن الشـعر)، وعـرف عنـه أنـه كـان يوجـه الفـن الشـعري وجهـة اسـلامية لخدمـة الـدين، وتربيـة الخلـق، ودليـل تقـدير عمـر للشـعر، ومعرفـة تـأثيره فـي النفـوس قولـه: (أفضـل صـناعات الرجـل الأبيـات مـن الشـعر يقـدمها فـي حاجتـه، يسـتعطف بهـا قلـب الكـريم ، ويسـتميل بهـا قلـب اللئـيم)، كمـا عـرف عنـه (رضـي الله عنـه) كـان مشـهورا بنقـد الشـعر ، وأحكامـه فـي الشـعر تعـد مـن القواعـد الموضـوعية الأولـى فـي تـاريخ النقـد الأدبـي فقـد أعجـب بشـعر زهيـر خاصـة لمـا ينطـوي عليـه مـن حكـم ، ودعـوة للخلـق الرفيع، والمثل الانسانية السامية ، فحين سمع بيت زهير بن أبي سلمى:

وإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

قال: (ومن علمه الحقوق وتفصيله بينها، وإقامته أقسامها)

الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)

لـم يكـن الخليفـة عثمـان بـن عفـان – رضـي الله عنـه – بعيـداً عـن النقـد فقـد اعجـب بشـعر زهيـر بـن ابـي سـلمى كونـه يتسـم بالصـدق والـدلالات ذات التوجـه الإسـلامي الـذي ينسـجم مع نهج الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – .

الأمام علي (عليه السلام)

فقد اتفقت له كل الصفات الحميدة، فنكاد لا نجد فضيلة في علم أو أدب تنسب لأحد إلا ونسبت إليه، ولقد شهد له بسعة العلم، والبلاغة والبيان، أما الشعر فقد كان كثير الحفظ له، وكثيرا ما تمثل به في حروبه، فضلا عن أنه كان يثيب الشعراء على الشعر الجيد الحسن وينفعل له.

والمعروف عنه (عليه السلام) أنه ذو بصر ثاقب، ومعرفة تامة بعلوم زمانه وأجلها القرآن الكريم والسنة الشريفة، وعلوم العربية شعرها وخطابتها، وكان ينشد الشعر ويتمثل به، ويحفظه ويرويه، وينظمه وينقده، وكان يتعقب الهجائين والغزلين الخارجين على تقاليد العقيدة وآدابها، فقد عرف عنه (عليه السلام) صلابته في إقامة حدود الله، وعدم تفريطه في حد من حدوده، وللإمام رأي في نقد الشعر، فالشعر في نظره (ميزان القول)، والمفاضلة بين شاعر وشاعر لا تجوز الا بين المتعاصرين، فقد أورد صاحب العمدة قولا نسبه للإمام علي (عليه السلام):

(لو أن الشعراء المتقدمين ضمهم زمان واحد، ونصبت لهم راية واحدة فجروا معا، علمنا من السابق منهم، وإذا لم يكن فالذي لم يقل لرغبة أو رهبة ....)، وهكذا يبدو أن نقد الامام يجري على وجه من الدقة، فلا مفاضلة إلا بين متعاصرين ينتمون الى عصر واحد، وكأنه يشترط المعاصرة لتحقيق العدالة بين المتسابقين، وإن تعذر ذلك فالأفضل فيهم من لم يقل لرغبة أو رهبة، وكأنه يحفز في الشعراء روح التلقائية والطبع، ويفضل ذلك على التصنع في نظم الشعر.

لعلّ نقد العصر الإسلامي شأنه شأن بقية العصور المتأخرة تضمن قضايا عدة لعل من أهمها:

أ-بيان أهمية الشعر

عُرف الشعر منذ فجر الحضارات أنّه تراث الامة وسجلها التاريخي فله أهمية كبيرة في حياة العرب تتمثل في:

١-القضاء على الأحقاد والضغائن في صدور افراد المجتمع.

٢-ترقيق النفوس وإصلاح ذات البين بين أبناء المجتمع.

٣-الحث على مكارم الاخلاق وصواب الآراء ومعرفة الانساب وتدوين الوقائع.

٤-الحث على الفضائل وزرع القيم الاجتماعية الحسنة ورفع شأن الاخلاق الحميدة.

ب-قضية الشعر والأخلاق

تعد من القضايا المهمة في النقد العربي القديم، إذ نلحظ أنّ الخلفاء والصحابة في ذلك العصر قد ابدوا اعجابهم بالشعر الذي يحمل السمات الأخلاقية، فقد كان الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم- يقول:

(إنّ اصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد إلا كل شيء ما خلا الله باطل)، حينما سمع قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل.